

أضواء البيان

. @ 315

ولذا كان قول نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام { وَلَا يَلِدُوا إِلَّا لَاسٍ فَاجِرًا كَفَّارًا } ، كان بدليل الاستقراء من قومه ، والعلم عند الله تعالى . . .
وقوله تعالى : { وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ بِّ لَا تَذَرْنِي وَاللَّاسِ الْكَافِرِينَ دِيَّارًا } ، لم يبين هنا هل استجيب له أم لا ؟ وبينه في مواضع أخر منها قوله : { وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ } . . .
وفي هذه السورة نفسها وقبل هذه الآية مباشرة قوله تعالى : { مِّمَّنَّ خَطِئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا } فجمع الله لهم أقصى العقوبتين الإغراق والإحراق ، مقابل أعظم الذنوب الضلال والإضلال . . .

وكذلك بين تعالى كيفية إهلاك قومه ونجاة هو وأهله ومن معه في قوله : { فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ } فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا اللَّاسَ رُضًى عِيُونًا فَالتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلَ لَدُنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا } . . .
قال ابن كثير : لقد أغرق الله كل من على وجه الأرض من الكفار ، حتى ولد نوح من صلبه .
وهنا تنبيه على قضية ولد نوح في قوله { يَا بُنَيَّ إِنَّكَ كُذَّابٌ كَذَّابٌ } إلى قوله { فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ } لما أخذت نوحاً العاطفة على ولده قال : { رَبِّ إِنِّي ابْنُ ذُنُوبٍ وَأَسْءَلُكَ } إلى قوله : { إِنَّكَ كُذَّابٌ كَذَّابٌ } أثار بعض الناس تساؤلاً حول ذلك في قراءة { إِنَّكَ كُذَّابٌ كَذَّابٌ } ، إنه عمل ماضي يعمل أي بكفره . . .

وتساءلوا حول صحة نسبه ، والحق أن الله تعالى قد عصم نساء الأنبياء إكراماً لهم ، وأنه ابنه حقاً ، لأنه لما قال { إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِ بَيْتِي } تضمن هذا القول أمرين نسبته إليه في بنوته . . .
ثانياً : نسبته إليه في أهله ، فكان الجواب عليه من الله بنفي النسبة الثانية لا الأولى ، إنه ليس من أهلك . ولم يقل : إنه ليس ابنك ، والأهل أعم من الابن ، ومعلوم أن نفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم ، والعكس بالعكس ، فلما نفى نسبته إلى أهله علمنا أن نسبته إليه بالبنوة باقية ، ولو لم يكن ابنه لصلبه لكان النفي ينصب عليها . . .

ويقال : إنه ليس ابنك ، وإذا نفى عنه البنوة انتفت عنه نسبته إلى أهله ، وكذلك قوله